صور من مجتمع
القاهرة فى العصور الوسطى(*)

بقلم

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة

يمتد تاريخ القاهرة فى العصور الوسطى من سنة ٩٦٩م حتى سنة ١٥١٧ م . وفى هذه الحقبة التى قاربت خمسة قرون ونصف تعاقبت على حكم القاهرة ثلاث دول كبرى لكل دولة منها طابعها الخاص المميز ، هى دولة الفاطميين ، ودولة الايوبيين ، ودولة سلاطين المماليك .

والمعروف أن الحياة الاجتماعية تتصف دائما بنوع من الثبات والاستقرار وبطء التغيير بخلاف ما عليه الحال فى الحياة السياسية أو الحياة الاقتصادية .

وإذا نحن نظرنا إلى مجتمع القاهرة اليوم فإننا لا نرى وجها للمقارنة بين الأوضاع السياسية والاقتصادية السائده فيهـــا ، وتلك التى كانت سائده أيام الفاطميين أو الايوبيين أو المماليك . ومع ذلك فإننا نلمس بعض الأوضاع الاجتماعية والعادات والتقاليد التى نحرص عليها اليوم والتى حرص عليها أهل القاهرة أيام الفاطميين والايوبيين والمماليك .

(*) محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ــ ضمن موسم القاهره الثقافى بمناسبة مرور ألف عام على انشاء مدينة القاهرة ــ وذلك مساء الاثنين ٢٩ ابريل ١٩٦٩ بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ومن هذه المقدمة نخرج بحقيقة كبرى هى أن مجتمع القاهرة احتفظ بقدر ثابت من صورته طوال العصور الوسطى ، رغم تعاقب ثلاث دول عليه فى تلك العصور . ولا نقصد بذلك مطلقا اتفاق مجتمع القاهرة فى تفاصيله أيام الفاطميين مع ما كان عليه أيام ـ الايوبيين أو أيام المماليك ، فلكل دولة من هذه الدول الثلاث ظروفها الخاصة السياسيه والاقتصادية وربما العقائدية والمذهبية التى عكست صورتها على حياة العاصمة وتركت أثرا فى مجتمعها ، مما جعل هناك قدرا متفاوتا من التباين فى بعض الأوضاع الاجتماعية بين الدول المشار إليها . وإنما كل ما قصدناه هو تأكيد حقيقة هامة هى وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا فى مجتمع القاهرة طوال العصور الوسطى ، بل ربما العصور الحديثة . وترجع بعض هـــذه الأصول المشتركة إلى ظروف البيئة التى تمتد بعيدا فى بطون التاريخ ، فى حين يرجع البعض الآخر إلى الطابع العام للمجتمع العربى الاسلامى وما ساده من تقاليد اجتماعيه مشتركة فى جميع انحاء الوطن الاسلامى الكبير تحت تأثير تعاليم الاسلام وآدابه .

ولا يعنينى فى هذا البحث ذلك الطابع العام للحياة الاجتماعية فى القاهرة طوال العصور الوسطى أو ذلك القدر المشترك من التقاليد والعادات التى كيفت الحياة العامة فى القاهرة فى تلك العصور ، بقدر ما تعنينى الاشارة إلى الطابع الخاص للحيـــاة الاجتماعية فى القاهرة على عصر كل دولة من الدول الثلاث التى تعاقبت فى حكم مصر فى العصور الوسطى ، مع بيان العوامل التى تحكمت فى تكييف الحيـاة الاجتماعية بالقاهره أيام الفاطميين أو الايوبيين أو سلاطين المماليك ، كل على حدة

ولعل أهم ما تميز الحياة الاجتماعية فى القاهرة على عصر الخلفاء الفاطميين المبالغة فى أحياء الاعياد والمواسم ، وهى ظاهرة تستحق منا وقفه خاصة لتعليلها . لقد قال البعض أن ثراء الخلفـــاء الفاطميين ـ وخاصة فى العصر الأول لتلك الدولة ـــ كان

الدافع الاساسى لذلك الاسراف وتلك المبالغة ، ولكننا نسمع عن بعض حكام مصر السابقين واللاحقين ممن كانوا لايقلون ثروة عن الخلفاء الفاطميين الأوائل ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا فى إحياء الاعياد واقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثلما أسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض الوان الطعام وبعض العادات والتقاليد المرتبطة بالاعياد والحفلات والتى مازال قائمة فى مجتمعنا حتى اليوم إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين بالذات فما هو التعليل العلمى السليم لهذه الظاهره ؟ ؟

أن الأمر فى نظرنا لم يكن مجرد ثروة وافره نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يجدوا مجالا لتبديدها سوى المبالغة فى إحياء الحفلات ومد الاسمطه واقامة الحفلات . وإنما كان الأمر – من وجهه نظرنا – أبعد من هـذا بكثير . لقد قامت الدوله الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد فى أرض لاتدين بهذا المبدأ ولاتأخذ بذلك المذهب . وكان لابد لنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وفق المستويات الفكرية السائدة فى تلك العصور . وهل هناك طريق للدعاية لاولئك الحكام الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أيسر من أشباع البطون وإحاطة الخلفاء بهالة من العظمة والمجد، وأشاعة جو من الفرح والحبور يجعل الناس – وخاصة فى العاصمة — لايرون فى ذلك التحول الجديد إلا كل محبب إلى نفوسهم وبطونهم ؟ ؟

وهكذا اتخذت الدولة الفاطميه من الاعياد والولوا كب والاسمطة سبيلا للدعاية والنفاذ إلى قلوب الناس وكسب ولائهم ومحبتهم وأعجابهم بالنظام الجديد . هـذا فى الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس عن طريق نشر مبادىء المذهب الجديد ، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهـذه الدعوة الفكرية . ومن الاعياد التى جرى الفاطميون على المبالغة

فى إحيائها ما هو عام بالنسبة للمسلمين جميعا مثل عيد أول العام الهجرى وعيد مولد النبي (ص) . ومنها ما أدخله الفاطميون فى مصر مثـــل مولد على بن طالب ومولد الحسن ومولد الحسين، رضى الله عنهم . وكذلك الاحتفال بليالى الوقود الأربع وهى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه ، فضلا عن الاحتفال بعيد الغدير — أى غدير خم — وهو المكان الذى يقول الشيعة أن النبي (ص) ولى عليا بن أبى طالب عهده فيه وجعله منه بمنزلة هارون من موسى . أما يوم عاشوراء — وهو عاشر المحرم — وقـــد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيرا تعطل فيه الأسواق ، ويخرج أهل القاهره إلى الطرقات يبـكون وينوحون حزنا على الحسين بن على الذى استشهد فى ذلك اليوم . وكان يعد فيه سماط أطلق عليه اسم سماط الحزن ، لايقدم فيه إلاخبز الشعـــير والعدس والملحات والجبن ونحوها . وهناك من الاعياد التى شهدتها القاهره فى العصر الفاطمى ما اتخذ صبغة قوميه مثل عيد جبر الخليج — أى وفاء النيل — وعيد النوروز — وهو عيد الربيع — ، فضلا عن خميس العهد وهو أحد الاعياد المسيحية ، يأتى قبل الفصح بثلاثة أيام ، واحتفل به الفاطميون مشاركة للنصارى فى أعيادهم[1] .

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا فى مواكب فخمه يشقون شوارع القاهرة وسط افراح الناس وزغاريد النساء ومظاهر الزينة . وبعض هذه المواكب كانت تسمى المواكب العظام ، وتتم فى أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والاضحى ، وجبر الخليج . أما المواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندى أسم المواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ، ويكون ذلك عادة أيام السبت

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٧

والثلاثاء(١) . وفى بعض هذه المواكب كانت تسير آلاف الفرسان وصفوف الجمال ، وعليها الهوادج المزركشة تتهادى فى شوارع القاهرة ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، فى حين يحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق(٢) .

واشتهرت أعياد القاهرة فى عصر الفاطميين بما كان يقام فيها من ولائم وما يعد من أسمطه صارت مضرب المثل فى التاريخ . واشهر الاسمطة التى كان يقيمها الخلفاء الفاطميون هى تلك التى كانت تعد فى أول العام الهجرى وفى مولد النبى (ص) وفى غرة رمضان وفى عيدى الفطر والاضحى . ويكفى للوقوف على ضخامة هذه الاسمطة ، وما كانت تحويه من كميات ضخمة من ألوان الاطعمة أن نشير إلى أن السماط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف(٣) ويذكر القلقشندى أن السماط الواحد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد وعشرون خروفا ، وثلثمائه وخمسون من الطير ، ما بين دجاج وحمام ، هذا عدا الفطائر والحلوى(٤) . وبعد أن يفتتح كبار القوم السماط ، يباح لعامة أهل القاهرة ، فيأكلون ملأ بطونهم ، ويسمح لهم بحمل ماتبقى وبيعه فى الأسواق . وفى مولد النبى (ص) كان يصنع عشرون قنطارا من الحلوى توزع فى الأزهر على عامة أهل القاهره(٥) .

وهكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون أهل القاهرة ، عن طريق

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٠٣ ـ ٥٢٠ .
(٢) ناصرى خسرو ، ص ١٣٦ ـ ١٤٢ .
(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦٢
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

إشباع بطونهم ، فظل الدعاء للخلافة الفاطمية طالما هى فى يسر ، حتى إذا ما أدبرت الدنيا فى وجهها ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، أنقض عنها كثيرون ، وهذه هى سنة التاريخ .

أما الدولة الايوبية فقـــد جاءت من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فى القاهره طوالهما بالاسراف والمبالغة فى أحياء الحفلات ، وهما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية . ولكن دولة بنى أيوب أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الايوبية فى وقت صار الصليبيون بالشام أشد مايكونون قوة واتساعا ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس فى الشام فحسب ، بل أيضاً فى مصر ، فضلا عن الحجاز والعراق وبعض أجزاء المغرب . لذلك لم يكن هناك مجال أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحيـانا فى العصر الايوبى لمباشرة حيـاة الترف فان المال لم يتوافر ، لأن حراسة القوافل ، وتحصين المدن ، وشحن القلاع ، واعداد الجيوش ، وبناء السفن والأساطيل ، وصناعة العدد وآلات الحرب . . كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفد آخر درهم فى خزانة سلاطين بنى ايوب .

وبينما نقرأ فى مصادر التاريخ أن أول ما شرع فيه جوهر الصقلى فور تأسيسه مدينة القاهرة هو بناء قصر كبير لمولاه الخليفة المعز لدين الله ، إذا بابن شداد يروى عن صلاح الدين أنه « قنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة[1] » . وبينما يحكى المقريزى عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنه انجب

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ .

بلتين إحداهما رشيدة وقد تركت ثروة منها مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب، والأخرى عبدة وقد تركت عـــددا من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على أكياس الزمرد والدنانير والثياب الفاخرة[1] ، إذ بنا نسمع عن صلاح الدين أن الجهاد استنفد كل دينار فى خزائنه بحيث لم يترك عند وفاته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجرام واحد من الذهب[2] .

ووصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، فـكان أول ما شرع فيه هو تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفـــلات والمبالغة فى فخامة المواكب . . . أما صلاح الدين الايوبى فـكان أول ما أهتم به عندما تمت له الأمور فى مصر هو بناء قلعة الجبـل وتشييد سور القاهرة واتخـاذ كافة الاجراءات لحماية البلاد والعباد من خطر العدو الصليبى .

وليس معنى ذلك أن الحيـاة الاجتماعيه فى القـاهرة على عصر بنى ايوب صارت مجدبة كل الجدب ، خشنة كل الخشونة ، خالية تماما من مظاهر الأفراح والليـالى الملاح . إذ الواقع أن الايوبيين حافظوا على أحياء الاعياد الدينية وغير الدينية ، ولـكن فى غير أسراف ودون مبالغة أو تهتك . فالمقريزى عندما يشير إلى بعض الإحتفالات فى العصر الايوبى لايتعرض لالوان الاباحية وصنوف المنـكر التى انتقدها فى مرارة عند كلامه عن الاحتفالات فى العصرين الفاطمى والمماليكى[3] . ذلك أن الايوبيين اقتصروا فى الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها باعياد الشيعة ، فى حين حوروا البعض الآخر ، بما يتفق وإحلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى .

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

من ذلك مثلاأن عاشر المحرم – وهو يوم عاشوراء– كان يوم حزن عند الفاطميين ، تغلق فيه الأسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب(١) . وهكذا لم تحرم القاهرة فى عصر الايوبيين من أحياء الحفلات والاعياد ، ولكن فى غير تبذل أو إسراف ، فنسمع عن الاسمطة السلطانية فى العصر الأيوبى ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة فى القاهرة كان السلطان صلاح الدين الأيوبى نفسه ، ولكننا لانسمع عن الاسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات واللوا كب الفاطمية أو المماليكية(٢) .

حقيقة أننا نجد فى المراجع إشارات إلى أن بعض خلفاء صلاح الدين بالغوا أحيانا فى إقامة بعض الحفلات . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لاعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر(٣) . كذلك روى عن السلطان الكامل إنه قام سماطا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وانفق فى ذلك السماط أموالا باهظة(٤) . وتكرر ذلك فى عهد السلطان العادل الصغير الذى أقام سماطا فى الميدان الأسود تحت القلعة ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلا عن البقر والجاموس والإبل(٥) .. ولكن هذه كلها كانت حالات فردية ، لاتعبر بحال من الأحوال عن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة فى الشطر الأول من تاريخها .

ومهما يكن من أمر نشاط الحياة الاجتماعية فى القاهرة على عصرى الفاطميين

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٥٩

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٠٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٤) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ٦٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ – ٢٩٠

والأيوبيين ، فإن الحقيقة الكبرى التى لا يرقى إليها شك هى أن القاهرة فى عصر سلاطين المماليك شهدت أزهى حلقات نشاطها الإجتماعى وغير الاجتماعى فى العصور الوسطى . حقيقة أن سلطنة المماليك قامت عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد وخطر التتار قد ابتلع فعلا بلاد الشام وبلغ غزة مهددا بابتلاع مصر ووادى النيل . هذا بالإضافة إلى خطر الصليبيين الذى كان لا يزال رابضا على أرض الشام عند قيام سلطنة المماليك. ولكن المماليك استطاعوا فى مستهل دولتهم كسر شوكة التتار وطردهم نهائيا من بلاد الشام والوقوف لهم بالمرصاد لردعهم كلما حدثتهم أنفسهم بعبور نهر الفرات لتهديد الشام . أما الخطر الصليبى فقد صار أضعف من أن يشكل خطرا حقيقيا على المماليك ودولتهم ، ولم يلبث سلاطين المماليك فى مدى أربعين عاما من قيام دولتهم أن قوضوا أركان البناء الصليبى بالشام ، واستولوا على المدن والمعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى حتى انتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام سنة ١٢٩١(١).

وهكذا لم تشعر القاهرة وأهلها فى عصر سلاطين المماليك بإحساس الخطر الذى أحسوه فى عصر الأيوبيين . ويكاد لم يخل يوم فى ذلك العصر إلا وشهدت القاهرة حفلا أو موكبا ، لاستقبال سلطان وفد عاد من الشام منتصرا على التتار أو على الصليبيين(٢) ، أو احتفال بشفاء سلطان من مرض ألم به(٣) ، أو إحياء لعيد أو لمناسبة دينية أو قومية(٤) أو لمشاهدة موكب السلطان وقد نزل من القلعة فى طريقه إلى ساحة الصيد أو ملعب الكرة أو شاطئ النيل طلبا للراحة وتنسم الهواء(٥) . وفى جميع

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي فى مصر والشام ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٨
(٣) تاريخ ابن الفرات ، حوادث ٧٩٩ هـ
(٤) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٣) ص ٧٤
(٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ — ٨٧ .

هذه المناسبات كانت القاهرة كلها تلبس حلة زاهية مشرقة ، فيقوم أصحاب الحوانيت بتبييضها وتزيينها، وتصطف للغانى من النساء فى الدكاكين ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، وتضرب الكوسات بالقلمة والطبلخانات بدور الأمراء . ويتبارى الناس فى إقامة أقواس النصر — التى عرفت باسم القلاع — فى الشوارع ، وفى الليلة السابقة للموكب يخرج الناس إلى الشوارع الرئيسية التى يمر بها موكب السلطان لاستئجار الأماكن التى يقضون بها الليل استعدادا للفرجة فى اليوم التالى . وهكذا تقضى القاهرة ليلتها مضاءة بالشموع والقناديل ، وتختلط فيها أصوات الغانى بدق الدفوف وزغاريد النساء ودعاء الرجال(١) . فإذا مر يوم على القاهرة دون الاحتفال بعيد دينى أو قومى أو بموكب سلطانى ، فإنه كان لا يخلو غالبا من احتفال عائلى فهذا شوار عروس تحمله الجمال والبغال التى قد يصل عددها إلى ثمانمائه جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال تشق شوارع القاهرة فى موكب حافل إلى منزل الزوجية(٢) وهذا رجل شفى من مرضه فاتجه إلى الحمام وسط موكب من الأهل والأحباب التقوا حوله ابتهاجا بشفائه(٣) . وهذه مغنية شهيرة تغنى فى مكان معين ، فيتدافع أهل القاهرة صوب ذلك المكان للاستمتاع بصوتها وغنائها(٤) .

على أنه إذا كانت الحياة الاجتماعية فى القاهرة قد بلغت ذروة نشاطها فى العصور الوسطى على أيام سلاطين المماليك ، فإن ذلك يستدعى منا وقفة قصيرة لتفسير أسباب هذه الظاهرة . وهنا يصح أن نشير إلى أن نشاط الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ج ٤ ق ٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٨

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٤ .

إنما يتوقف على طبيعة هـذا المجتمع وخاصة من ناحيـة حجمه وبنائه ومدى ثرائه . فإذا نظرنا إلى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك من هذه الزوايا الثلاث وجدناها قد استوفت جميع أركان النشاط الاجتماعى الخصب . فمن ناحية الحجم ، فاقت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من مدن العـالم من حيث السعة وكثرة السكان . وحسبنا أن ابن بطوطه — وهو الرحالة الذى طاف بمعظم أركان العالم المعروف فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلاد) — وصف القاهرة بأنها « أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بهـا ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تمـوج موج البحر بسكانها وتـكاد تضيق بهم على سعة مكانها(١) وذكر جيهان تنود الذى زار مصر سنة ١٥٢٢م أن القاهوة تبلغ ثلاثة أمثال باريس(٢) ، فى حين قال برنارد دى بريدنباخ أنه لا يعتقد فى وجود مدينة أخرى فى العـالم كله تضاهى القاهرة فى كثرة سكانهـا واتساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميـع سكان إيطاليا لا يضاهون فى الـكثرة القاهرة وحدها(٣) .

أما عن بناء مجتمع القاهرة فى ذلك العصر ، فـكانت غالبية سكانها من المواطنين ومن هؤلاء كان العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعامة من المسلمين وأهـل الذمة سواء ولـكن امتازت القاهرة فى عصر سـلاطين المماليك باكتظاظها بالمماليك — وهم الطبقة الحـاكمة السائدة فى البلاد — ومعظمهم من الترك ثم الجركس . هذا كله فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ .

(2) Carré : Voyageurs et Ecrivans Francais en Egypte, 8. 4.

(3) Clerget : Le Caire, Tome I, pp.152—153

وأخيرا ، فإن القاهرة صارت عاصمة العالم التجارية فى عصر سلاطين المماليك ، بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب فى ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقى طريق مصر والبحر الأحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار تجارة الشرق وخاصة تجارة التوابل . وهذا عاد عليهم وعلى مصر بثروة فائقة ، ظهرت صورتها فى مجتمع القاهرة فى ذلك العصر(١) .

وكان أن اكتظت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وعنى سلاطين المماليك بتجميل عاصمتهم وكنس شوارعها ورشها بالمياة منعا لإثارة الأتربة(٢) . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل أطفاء ما يحدث من الحرائق(٣) واختص المشاعلية بأسربة البيوت والحمامات وخزاناتها فقاموا على نزحها وتنظيفها بين حين وآخر(٤) . كذلك أمر بعض السلاطين — مثل بيبرس وبرقوق — باخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، وانذروا من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل(٥) . هذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها ، فامروا بامساكها ونفيها بعيدا خارج المدينة(٦) .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٨٤ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ص ٦٦٧ .
(٣) المقريزى : المواعظ ، ج ٣ ص ١٧٤ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٤٨ .
(٥) تاريخ ابن الفرات ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ، العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ
(٦) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١ ص ١٢٥ .

وهكذا رأت القاهرة مجتمعا صاخبا فى عصر سلاطين المماليك ، فبالاضافة إلى الاحتفالات والمواكب العديدة التى سبق ذكرها ، اتصفت الحياة اليومية فى شوارع القاهرة بكثرة الباعة الجائلين ، وأصحاب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة فى رقابهم يصيحون بأصوات مرتفعه ليسمعهم الراغبون فى قص الشعر والزينة(١) . هذا عدا المارة من النساء اللائى تتمتعن بحرية واسعة فى الخروج من بيوتهن ، فمنهن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن ، أو يترددون على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضين الساعات الطوال بتناقلن أخبار البيوت وأسرار العائلات(٢) . يضاف إلى ذلك كله كثرة الدواب، فالخيول المطهمة يركبها المماليك وقد ارتدوا ملابسهم المزركشة ، وأخذوا يركضون وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليفسحوا لهم ، غير مبالين إذا سقط بعض المارة تحت حوافر خيولهم(٣) والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما تحتاج إليه من الماء . وقد قدر البلوى المغربى هذه الجمال فى القاهرة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) بمائتى ألف جمل(٤) . أما السقاءون فقد بلغ عددهم خمسة آلاف سجلوا اسماءهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل السماح لهم بالمتاجرة فى ماء النيل(٥) . أما الحمير فبلغت عددا كبيرا لأنها قامت فى قاهرة عصر المماليك بدور سيارات الاجرة ، فمنى أصحابها برشمها وتطهيمها ، وقدر ابن بطوطه

---

(١) Tafur : Travels, p. 101.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ ، ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) Schefer : Le Voyage d' Outremer, p· XXX III

(٤) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ .

(٥) Dopp.: Le Caire Vu, Tome 23, p. 144.

عدد المكاريين فى القاهرة بثلاثين ألف مكارى[1] .

وإذا كان أهل القاهرة فى عصر سلاطين المماليك قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الأهالى من المصريين[2] ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء[3] ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم[4] فإن هذا كله لم يفقد أهل القاهرة روح المرح التى عرفوا بها فى كل زمان ومكان . وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس عند أهل القاهرة فى عصر المماليك ، منها خروج الناس إلى الحدائق والمتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها[5] . وكان نهر النيل دائما ملهى أهل القاهرة ، فزرعوا الحدائق على شواطئه واستأجروا القوارب والسفن فيه ، وخاصة فى فصل الصيف[6] .

وبالاضافه إلى ذلك فقد عرف أهل القاهرة خيال الظل واعتبروه تسلية شعبية[7] هذا كله فضلا عن الألعاب التى تلهى بها الناس والتى اتخذ بعضها طابع المقامرة ، مثل تطيير الحمام والمناطحة وبالكباش والمناقرة بالديوك فيراهن الشخص على هذا أو ذاك من الكباش أو الديوك ، فإذا فاز كسب الرهان[8] كذلك عرفت

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، ج ٥ ص ٤٠١
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨
(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ ، السلوك ج ٣ ص ١٦٤ .
(٥) المقريزى : المواعظ ج٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .
(٦) ابن الحاج : المدخل ، ج ١ ص ٢٤٦ ، المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٣٣ .
(٧) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٤٧ .
(٨) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص٤١ .

القاهرة فى ذلك العصر ألعاب البهلوانات والحواة والدبابة الذين يعبلون بالدبية والقرادة الذين يلعبون بالقرود[1] . وهكذا اكتسبت القاهرة فى ذلك العصر شهرة واسعة فى اللهو والمرح ، حتى أن الناصر ابن صاحب اليمن عندما أراد العودة إلى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصناع والمساخر وأرباب الملاهى[2] » .

على أن حب أهل القاهرة للمرح واللهو لم يقلل أبدا من المسحة الدينية الواضحة التى اتصفت بها القاهرة ومجتمعها فى عصر سلاطين المماليك . وحسب القاهرة فى ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت فى بغداد على أيدى التتار ، الأمر الذى جعل القاهرة محورا لنشاط دينى فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية الضخمة مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها[3] وترجع أفخر العمائر الإسلامية التى تزدان بها القاهرة اليوم إلى عصر سلاطين المماليك بالذات .

ويميل بعض الكتاب والباحثين إلى القول بأن مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك كان ذا واجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين وباطنة الاثم والفساد . ذلك أن طبيعة المماليك وحكمهم ونظامهم ، فضلا عن روح العصر نفسه ، كل ذلك ساعد على انتشار كثير من الأمراض الخلقيه مثل الزنا والشذوذ الجنسى وتعاطى الحشيش والخمر والرشوة وغيرها . ومهما يقال من أن موجه الانحلال الخلقى سادت بقية البلاد الإسلامية فى تلك الحقبة من التاريخ ، فإننا

---

(١) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٤١ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ،
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧ .
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ص ١٥٣ وما بعدها .

obeikandl.com

نرى أن المماليك أنفسهم مسئولون إلى حد بعيد عن تفشى الأمراض الخلقية فى القاهرة طوال مدة حكمهم لها . فالسلطان برقوق الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء ، لم يتحرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المماليك الحسان لعمل الفاحشه فيهم[1] ويعبر المقريزى فى مكان آخر من كتابته عن هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بأنه « فشى فى أهل الدولة محبة الذكران » ، ومن الواضح أنه يقصد بأهل الدولة طبقة المماليك بالذات[2] أما عن الحشيش فقد انتشر تعاطيه فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك ، وعبر عن ذلك المقريزى بقوله « فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا كبيرا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام[3] » واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش فى ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق[4] . ولم تكن الخمور أقل انتشارا من الحشيش بين مختلف طبقات الناس فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك . وقد ابتكر بعض أمراء المماليك أنواعا مستحدثه من الخمور نسبت إليهم مثل التمر بغاوى نسبة إلى الأمير تمربغا والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك ، كما عرف فى عصر المماليك نبيذ التمر ويعمل من لبن الخيل. وقيل عن السلطان فرج بن برقوق أنه كان أحيانا يشق شوارع القاهرة وهو لايكاد يثبت على فرسه من شدة السكر[6] ! وكان من الطبيعى أن ينتشر شرب الخمر بين عامة المصريين فى القاهرة ، حتى أعتبرت الخمور

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٩ .

(٥) المقريزى: ج ١ ص ٦٠٧ ، ج ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٨١

(٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٢ ص ٢٧ .

متعة للمغانى فى الحفلات والافراح[1] . وكذلك انتشر البغاء فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك ، حتى وقفت البغاة بالاسواق تحت أعين المارة ، واعترفت بهن الدولة ففرضت عليهن ضرائب مقررة[2] .

لاشك فى أن فشو هذه الأمراض وغيرها فى مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك إنما كان نتيجة طبيعية لاكتظاظ مدينة كبيرة مثل القاهرة بالسكان، ووفود نسبة كبيرة من الاغراب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف عليها ، فضلا عن الثروة الكبيرة الناجمة التى هبطت على ذلك المجتمع والتى أعتبرها ابن خلدون مسئولة عن تلك الانحرافات[3] .

ولكن هذه الانحرافات لم تغير أبدا من الطابع العام للقاهرة ، وهو الطابع الذى عبر عنه للسيوطى فى عصر المماليك بأنها « صارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء[4] .

دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص٤٢٦ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ .
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

obeikandl.com